مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 5 السنة: 2020
ص: 847 - 860 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الذات في الفلسفة الغربية: من الانغلاق إلى الانعتاق.

The Self in Western Philosophy: From Seclusion to Emancipation

فوزي لحمر[1]*، جمال سعادنة[2]

Fouzi lahmar[1] Djamel Saadna[2]

مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة-جامعة باتنة 01 (الجزائر) -

University of Batna01(Algeria)

fouzi.lahmar@univ-batna.dz

تاريخ الإرسال:2020/04/18	تاريخ القبول:2020/09/20	تاريخ النشر : 2020/12/25

ملخص البحث

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم قراءة في موضوع الذات، من خلال رصد الآراء الفلسفية التي سعت لإيجاد تأويلية مناسبة لهذا المصطلح (الذات) تقوم على الانفصال والاتصال- في آن واحد – فقد خلّف صراع التيارات الفلسفية الغربية القديمة شرخا عميقا في المنظومة الفكرية والإبستيمولوجية، لذا جاءت أبحاث الفلسفة الحديثة لرأب هذا الصدع والإجابة عن التساؤل المتعلق أساسا بمعرفة كنه الذات في مقابل الآخر، ورتق فتوق التمركز حول الأنا، إنه سؤال يرتبط أشد الارتباط بالهمّ الأنطولوجي للإنسان، وعلاقة الفرد بالعالم، ومدى قدرته على بلوغ الحقيقة وفك شفرة المعرفة الكونيّة والماهية الكينونيّة.

وقد توصلنا إلى نتيجة مفادها أن الذات في الفلسفة الغربية الحديثة لم تعد تلك الذات المتوجّسة من الآخر والمنغلقة على نفسها، بقدر ما هي ذات متماهيّة مع غيرها ومتخلية عن نزعتها المركزية المتعالية، إنها قطيعة مع الترسبات النرجسية للأنا وجروح للكوجيتو الأحادي وانتصار لتعدد الذات وانفتاحها.

الكلمات المفتاح: ذات، أنا، آخر، فلسفة، هوية، وعي.

Abstract:

This study reveals the nature of the self through observing different philosophical views that seek to interpret it appropriately on the basis of separation and connection at the same time. In effect, the clashes between the ancient Western philosophical trends left a deep rift in the mental and epistemological system; therefore, modern researches came to treat it and answer the question related to knowing the self versus the other and going beyond ego centeredness. It is closely related to human being ontological concern, the relationship between the individual and external world, and his

* fouzi.lahmar@univ-batna.dz

ability to reach truth and decipher cosmic knowledge and existence essence. Thus, we conclude that the self in modern Western philosophy is no longer that introverted self frightened of the other, but instead, it is identical that rejects transcendent central tendency. It is a rupture with narcissistic deposits of ego and wounds of the monogamous cogito and a triumph of the plurality of the self and its openness.
Keywords: self, ego, other, philosophy, identity, consciousness.

مقدمة:

يعدّ البحث في موضوع الذات من المباحث الإشكالية التي ظلت محل جدل بين الدارسين، وقد حاولنا في هذه الدراسة أن نسلط الضوء على بعض الجوانب المتعلقة بحدود الذات، وكيف كان حضورها كموضوع من الموضوعات الإشكالية الكبرى التي تناولها فلاسفة الغرب، وقد قامت إشكالية الدراسة على التحولات التي شهدها مفهوم الذات عند الفلاسفة عبر التاريخ؛ ذلك لأن الجدل قائم على التساؤل الذي مؤدّاه؛ هل مفهوم الذات يتحدد بالنظر إلى كونها كيانا مستقلا؟ أم إلى كونها كائنا لا تتحدد هويته إلا بالنظر إلى علاقته بغيره؟ وعليه كان التساؤل أيضا هل علاقة الذات بالغير هي علاقة تقابل وتناقض؟ أم أنها علاقة انعكاس وتناظر؟

أولا: بين الذات والهوية:

إن أول ما يتبادر إلى الذهن عند محاولة ضبط مفهوم الذات هو حضور الآخر كطرف مقابل لها، إنها النقيض المرتبط أساسا بالآخر المختلف، الخارج عن حدود الفرد، لذلك فإن تحديد معالم واضحة للذات لا يخرج عن نطاق دائرة العلاقات مع الآخر، أو مع عالم خارجي تتحرك فيه الذات وتأخذ موقعها فيه، وتتخذ موقفها منه، وعليه فالذات هي تلك السمات الشخصية للفرد،" والإطار الذي يضع الإنسان نفسه فيه، بحيث يكون ملما بما في نفسه، وهذه المعلومات التي يتوصل إليها الإنسان عن نفسه، تعتبر أشياء تعلمها عن نفسه"[1].

فلا بد للإنسان أن ينطلق من معرفة ذاته من الداخل على حقيقتها سواء تعلق الأمر بأفكاره، أو معتقداته، أو مشاعره أو قناعاته الشخصية وسلوكاته وعاداته النفسية، أضف إلى ذلك علاقته بالآخر والقدرة على التعامل مع العالم الخارجي وطريقه إدراكه لهذا الأخير، وما يفرض عليه ذلك من إيجاد طرائق للتّموقع داخل المجتمع.

أما فيما يخص الهوية فهي مصطلح معقد ومتشعب نوعا ما، ذلك انه تكوّن منذ تاريخ التفكير البشري القديم(سقراط)، للإجابة عن السؤال: ما هو؟ (هو هو) وبالتالي البحث عن الميزات والخصائص المتعلقة بالفرد أو مجموعة الأفراد أو ما يكُونونه داخل جماعة هووية مغلقة يثبتون لها الانتماء والولاء،" لذلك فإن لفظ الهوية مشتق من (الهو) كما تشتق الإنسانية من الإنسان، وهوية الشيء هي عينيته وتشخّصه وخصوصيته التي ندركها بالجواب عن السؤال: ما هو؟ ومن نحن؟"[2]

من هنا، يتضح ان الهوية تعني الثوابت والأسس المترسّخة في الذات والتي لا تحتاج إلى إثبات، فهي تتحدد تلقائيا نتيجة احتكاك الفرد بالجماعة التي ينتمي إليها دون الحاجة لتبريرها، لأنها مرتبطة بالأبعاد الثقافية والأخلاقية لتلك الجماعة.

ثانيا: حضور الذات في الفكر الفلسفي الغربي القديم:

1. عند "سقراط":(Socrate)

إن بداية الاهتمام بموضوع الذات يعود . تاريخيا إلى الفلسفات اليونانية القديمة وتحديدا إلى الفيلسوف اليوناني "سقراط" (القرن الرابع قبل الميلاد) من خلال نصيحته الشهيرة للشعب الأثيني: "اعرف نفسك، اهتم بنفسك" معلنا بذلك القطيعة مع التيارات الفلسفية الطبيعية التي ظلت لردح من الزمن ترى الحقيقة في مظاهر الكون وتجليات الطبيعة، وهو المنزع الذي سعى سقراط لدحضه، قصد تحرير الشعب اليوناني من سلطة الخارج، والتخلص من الهيمنة المادية، إنه تغيير كلي في نمط التفكير الفلسفي الغربي من الخارج إلى الداخل ومن الآخر إلى الذات، وعليه " فإن سقراط يقول بأنه لعب دور المنبه والموقظ بالنسبة لمواطنيه، وبالتالي فإنه سيتم اعتبار الاهتمام بالنفس بمثابة اليقظة الأولى"[3].

فلا مرية –حسب"سقراط"– من تعديل نمط التفكير، وإعادة النظر في جدوى النزعة القديمة السابقة لمعلم الفلاسفة الذي ما انفك يوجه تعاليمه لمواطنيه بضرورة الاهتمام بأنفسهم على اعتبار أنهم أفضل الشعوب وأكثرها حكمة وعلما، ولعل الضرورة السياسية هي الدافع الأول الذي أفضى إلى بلورة هذه النصيحة من سقراط وذلك في سياق حديثه مع "ألقيبيادس" فمن أجل أن يحكم "على الوجه الأكمل، وتسيير المدينة ومحاربة الأعداء، يلزمه أن يفكر في ذاته، وأن يهتم بها على الوجه الصحيح"[4].

ففلسفة "سقراط" تقوم على الاهتمام بالذات ومعرفتها، دون أن يعني الانعزال عن العالم الخارجي، والانزواء عن الواقع، بل هو اتخاذ موقف إيجابي اتجاه الآخر من خلال معرفة الذات، وهو ما يفضي في النهاية إلى إدراك العالم، وبالتالي تحمل المسؤولية السياسية بالدرجة الأولى وما ينجر عنها من مسؤوليات أخرى .

2. عند"أفلاطون"platon:

طور"أفلاطون" مساعي "سقراط" بضرورة معرفة الذات والاهتمام بها، وذلك بربط كل معرفة للذات بالأخلاق الخيّرة، مضيفا عنصر العقل الذي عده وسيلة ضرورية لرؤية العالم، ومن ثم التفريق بين مجموعة من الثنائيات: (كالداخل والخارج) (المادي واللامادي) (المتغير والخالد) كما أضاف الروح بوصفها " تساعد فكرة "أفلاطون" عن العقل، فالعقل هو القدرة على رؤية الوجود، الحقيقة المنورة، فكما أن العين لا تستطيع أن تمارس وظيفة الرؤية، إلا إذا كانت هناك حقيقة وكانت هذه الحقيقة منورة بشكل ملائم، كذلك لا يقدر العقل أن ينجز وظيفته إلا إذا تحولنا إلى الوجود الحقيقي منورا من الخير"[5]

إن نور الخير في النفس هو الباعث على إدراك حقيقة العالم، ولا مناص من ذلك إلا باستخدام العقل كونه أساس المعرفة، هذه الأخيرة هي التي تنبئ عن ولادة الوعي بالعالم وبالتالي ولادة الذات . حسب "أفلاطون" .

3. عند "أرسطو":(Aristote)

يختلف "أرسطو" عن أستاذه "أفلاطون" حين وضع مسافة فارقة بين نظام الحياة الفردية والنظام الكوني العام، "فالإنسان الحكيم عمليا(حسب "أرسطو") يعرف كيف يتصرف في كل ظرف بعينه بمعرفة لا يمكن مساواتها بمعرفة الحقائق العامة أو اختزالها إليها، فالحكمة العملية هي معنى لا يصاغ كليا وليست نوعا من العلم"[6].

غير أن ما يلتقي فيه "أفلاطون" و"أرسطو" هو أن كليهما يرفع من شأن القيم الأخلاقية الفاضلة لأنها أساس الوصول إلى جوهر الحياة، منافحين كذلك عن دور العقل والنزعة التأملية في إدراك الحقيقة الكونية، فمعرفة الذات تكون بمعرفة دورها في المجتمع ورؤيتها الإيجابية للآخر والعالم وبالتالي القدرة على التصرف بطريقة متبصرة "إن التكون الذاتي والاهتمام بالذات لا يقصد به

الانفصال عن العالم وعن الآخرين، ولكن تعديلا لهذه العلاقة بوجه ما، علاقة سياسية (من الذات إلى الذات)"[7].

4. في الفلسفة الروحية الغربية:

نحت الفلسفة الروحانية الغربية منحًى مغايرا، أفضى إلى اعتبار علاقة الذات بالعالم هي علاقة الذات بالحقيقة الموجودة في العالم لا في الذات كذات متأملة فحسب، بل في الذات المتحولة، ونقصد بالتحول هنا الثمن الذي تدفعه الذات من أجل الظفر بالحقيقة، وعليه فإن الزهد مثلا سيكون . لا محالة . هو أول مرحلة في هذا المسار العرفاني المضني والمثقل بالقلق تجاه العالم، و تجاه ما تتغيّاه الذات من الوصول إلى المعرفة، إنه صدام قاس بين فيزيولوجيا العالم المادي وكيمياء الروح، ولا بد لهذه الأخيرة أن تكابد وهي تسعى لأنْ تتخلى عن شوائب الماديات، لتعود إلى الأصل وهو " النفس التي يجب تحريرها من كل ما يستعبدها، النفس التي يجب حمايتها، النفس التي يجب الدفاع عنها، النفس التي يجب احترامها، النفس التي يجب تحويلها إلى عبادة "[8].

وعليه فإن النفس بهذا المعطى ومن هذا المنظور قد باتت هي الهدف الأساس لدى الروحانية (الأبيقورية ، الكلبية، الرواقية)، وإن كانت الفكرة قد وجدت سابقا لدى "سقراط"، غير أنها عند الزهديين تعني العزلة والخلوة والدخول في حالة مجاهدة ورهبنة روحانية كان لها صدى واسع في تاريخ فلسفة الذات والذي سيمتد لاحقا إلى الفلسفة الحديثة.

لكن لنعد قليلا إلى التحولات التي تفرضها وتفترضها الروحانية على الذات من أجل بلوغ الحقيقة، والتي لها صلة مباشرة بالتصوف المسيحي القديم، إذ لا حقيقة لمن لم يتصوف ولم يخل من الماديات، بل ولا يمكن للحقيقة إنقاذ الذات ما لم تلتزم بالتحول الأخلاقي بالأساس، " وبتحديد أكثر، فإن الروحانية تفترض بأن الذات غير قادرة على الوصول إلى الحقيقة ما لم تجر عددا من التحولات الضرورية، وإن الحقيقة كما هي غير قادرة على تغيير الذات وإنقاذها."[9]

فلا بد إذن من تضحية محتومة يلتزم بها الباحث عن ذاته وعن الحقيقة، إنها عملية إفناء للنفس، ومن هنا يظهر لنا الفرق بين الفلسفة السقراطية والأرسطية والأفلاطونية والفلسفة والروحانية، ذلك لأن الأولى ترى أن معرفة الذات وإدراك كنهها مرتبط بمعرفة دورها في إصلاح المجتمع والحفاظ على قيم الخير والأخلاق، في حين ترى الثانية (الروحانية) أن معرفة الذات تبدأ بالتحول والانطواء عن الآخر، أضف إلى ذلك فإنها تقر بأن الذات لا تملك الحقيقة في ذاتها، بل

تصل إليها بعد سلسلة من التحولات بالتماس طريق الزهد والتنسك، عكس ما يراه الفلاسفة اليونانيون القدماء (وبعدهم المحدثون) بأن كل ذات تحمل الحقيقة في ذاتها وتستطيع دحض الشك عن طريق آلية التفكير المنظم الموصل لليقين والإدراك والتحكم في المؤسسة السياسية والمنظومة الأخلاقية العامة.

ثانيا: الذات في الفلسفة الغربية الحديثة (استدارة في الوعي الذاتي)

سعت الفلسفة الغربية الحديثة إلى خلخلة الكثير من المفاهيم المرتبطة بفلسفة الذات، من خلال طرح السؤال القديم الجديد المتعلق بعلاقة الذات بالحقيقة: هل الذات .كذات متعالية تحوي بذور الحقيقة؟ وما الذي يثبت صحة هذه الحقيقة الكامنة في تضاعيف الذات؟ فقد أدى تضارب الآراء بين الفلاسفة في العصر الحديث إلى انقسامهم وتحزبهم في تيارات ومذاهب لكل منها رأيه وتوجهه:

1- "ديكارت" وإشكالية البحث عن الذات والحقيقة:

يعد الفيلسوف الفرنسي " رينيه ديكارت" Rene Dexartes رائد المذهب العقلي بامتياز، فقد استطاع أن يقدم طرحا جديدا (في كتابه تأملات في الفلسفة الأولى) متعلقا بمنهجه في الوصول إلى الحقيقة أو اليقين انطلاقا من الشك في كل شيء قابل للشك، وأول شيء شكك فيه هي الحواس، إذ اعتبرها مخادعة لنا وما يخدعنا لا يمكن الوثوق فيه، لأنه لا يضمن لنا أية معرفة صحيحة تبلغ حد اليقين، بل إن العالم الذي نعيش فيه قد يكون مجرد خدعة حسية (والأحلام – حسب "ديكارت"– تؤكد فكرة الخدعة الحسية) وهذا ما أدخل "ديكارت" في معضلة عميقة جدا، لم يجد لها حلا في علم الرياضيات، كونه العلم الوحيد الدقيق والصادق فهو ينطلق من مسلمات بديهية ليصل إلى اليقين، لكنه توجس خيفة منه وساوره الشك مرة أخرى تجاه هذا العلم وإزاء وجوده أيضا، ليهتدي أخيرا إلى حقيقة لا يمكن الشك فيها أبدا هذه المرة ألا وهي ذاته المفكرة، فوجود ذات مفكرة يعني –حسب "ديكارت"– أن هناك وجودا ما، أي أنني موجود مادمت أمارس فعل التفكير هذا وبذلك نستطيع القول: إن العقل المفكر والواعي هو ما يثبت وجود ذات ما في العالم ومن هنا "يجد ديكارت ضالته في العقل، بدلا من البحث عن الحقيقة في العالم الخارجي يجب رصدها داخل الذات. "[10]

فقد تيقن "ديكارت" أنه موجود من خلال الشك الموصل لليقين (الكوجيتو الديكارتيThe Kogito) أو الأنا المفكرة، الأنا التي تشك في كل شيء، إنها قطيعة مع الحواس ورفض لزيف المادي، فالذات تحب وتكره، تقبل وترفض، تحس وتتألم بعيدا عن إملاءات الجسد المادية " إنها –إذن– ذاتية تؤكد نفسها بالتفكير في شكلها الخاص "[11] لكن هذا الشك – حسب "ديكارت" – لم يكن ليوجد لولا وجود نقص ما في العقل أو الذات المفكرة، وأن هنالك ذاتا أخرى هي التي تقذف بنور الحقيقة في العقل، إنه فيض ونور الله الفطري الذي أودعه في العقل البشري، وهو ما يسد نقص ذواتنا ويمدنا باليقين،" لذلك فإننا إذا أدركنا العالم الخارجي والجسم الإنساني عن طريق النور الفطري للعقل، فيمكن أن نميز بوضوح الموجودات الخارجية ومنها أجسادنا "[12] وهكذا فإن الذات موجودة مادامت تفكر وتشك، وأن العالم ليس سوى مُدْرَكًا يدور في فلك العقل باعتباره مركز الوعي.

2– موقف الفلاسفة اللاحقين من مذهب "ديكارت":

لقد قوبل التوجه العقلي الديكارتي بحملة نقد عنيفة من قبل الفلاسفة اللاحقين، ومن أبرزهم:

❖ **الألماني "إيمانويل كانط"Emmanuel Kant**: لقد خصص "كانط" كتابه (نقد العقل المحض) لدحض هذا النزوع العقلي وكشف المبالغة التي خص بها العقل، فرغم كونه منشأ المعرفة، إلا أن الحواس . حسب "كانط" . هي التي تمد العقل بآلية الإدراك، فكل ما هو مُدْرَك بالعقل ما هو إلا تمثل لموجودات ندركها في أول الأمر بالحواس "ويلخص "كانط" موقفه من واقعية العالم الخارجي في عبارة قصيرة وكأنها منطوق نظريته وهي: أن مجرد الشعور بوجودي وهو شعور محدد تحديدا تجريبيا يبرهن على وجود الأشياء الخارجية"[13]، فما هو موجود في الداخل (الذات) موجود في الخارج (الحس) أيضا، وبعبارة أخرى فإن العقل لا يمكنه أن يصل إلى معرفة يقينية بوجود الذات إلا من خلال معرفته العالم الخارجي المتمايز عن الذات، وبذلك فقد أحدث "كانط" بآرائه الفلسفية المثالية ثورة كوبرنياكية قوضت مركزية العقل الديكارتي وأحاديته.

❖ **أنصار المذهب التجريبي**: يذهب أنصار المذهب التجريبي إلى تفنيد فكرتي "ديكارت" و"كانط" على حد سواء، فالمعرفة عندهم تستند بالأساس على الحواس وتلغي دور العقل، كون هذا الأخير لا يقدم سوى الوهم والزيف وأنه لا حقيقة إلا داخل دائرة الحواس، من

أنصار هذا التيار نجد كلا من : "جون لوك"John Lock، "ديفيد هيوم" David Hume، و"جورج باركلي" George Barkeley...

❖ **"آثر شوبنهاور"Arther Schopenhewre**: يرى "شوبنهاور" أن العالم "من امتثالي" والمقصود بهذا هو أن" كل وجود خارجي مرده في الواقع إلى الذات، ومن هنا كان مذهبه في المعرفة مذهب الذاتية"[14]

❖ **"باسكال" Paxal و"غدامير" Gadamir**: لقد كان موقف "شوبنهاور" ممهدا لفكرة الاحتواء أو التداخل لدى باسكال، وهي فكرة قائمة على أن الكون يحتويني ويستغرقني كنقطة وبالفكر احتويه، فهو يحتويني ماديا وأنا احتويه فكريا، أنا داخله بجسمي وهو داخلي بفكري، وذلك ما يفضي إلى أن العالم الصغير هو الإنسان والإنسان الكبير هو العالم، وهو ما أشار إليه وتبناه "غدامير" لاحقا في فكرته التي فحواها أن الإنسان أو الفرد ينتمي إلى العالم والعالم يستغرق ويحتوي الإنسان" أحدهما يمتلك الآخر، أحدهما ينتمي إلى الآخر، لكن لم تتم أبدا معالجة هذا الانتماء المتبادل عن قرب، مع أن من خلاله بأساسا يتخذ الإنسان والكينونة المحددات الأساسية التي من خلالهما تأولهما الفلسفة بطريقة ميتافيزيقية"[15]

ثالثا: العلاقة البين ذاتية والوعي الذاتي الجديد:

إن سؤال الذات أو الماهية سؤال نشأ – كما سبق – عن النصيحة السقراطية القديمة: (اعرف نفسك، اهتم بنفسك)، والذي أدى إلى فكر أحادي متمركز حول الفرد دون الاكتراث بالدور الذي يشكله الغير في أية معرفة وإنْ كانت متعلقة بذواتنا، وقد امتد الفكر الأحادي إلى العصر الحديث (تصور "ديكارت" مثلا)، وقد ولّد ذلك معرفة قاصرة ومبتورة تتمركز حول الذاتية وتلغي الغيرية، وتجحد دور هذه الأخيرة في نحت صورة الذات، إنها نقطة الضعف التي انتبه إليها الفلاسفة الجدد، إذ حاولوا النبش في العلاقة البين ذاتية، وأدركوا أنه لابد من إعادة النظر فيها، منطلقين من سؤال جوهري مفاده:

– هل العلاقة بين الذات والغير هي علاقة تقابل وتناقض؟ أم هي علاقة انعكاس وتناظر؟

إن النظرة التقابلية القديمة بين الذات والغير جعلت وجود هذا الأخير وجودا عرضيا لا طائل منه، عكس النظرة الجديدة التناظرية التي ترى أن الاعتراف بوجود الذات يحمل ضمنيا اعترافا

بوجود الغير أو الآخر، ولعل اللسانيين هم أول من أشار إلى العلاقة التواصلية بين الأنا والأنت، التي تستلزم مراوحة بين حضور الأنا وغياب الأنت والعكس، ذلك لأن تحقق الأنا مرهون بوجود الأنت.

لقد بات الاعتراف بالغير حتمية لا مناص منها، لأن الغير هو من يثبتني ويعكس وجودي من خلال علاقة التعاطف تارة، والصراع الهيغلي تارة أخرى، ويكشف "هيغل"Hegel عن هذا الصراع الذي هو في الحقيقة تضايف بين الذات والغير واقتراب قبل أن يكون ابتعادا،"فكل تعيين يتضمن بالضرورة مقابله، والوالد هو غير الابن وبالعكس، فكل منهما هو غير غيره، وفي الوقت نفسه كل تعيين من هذه التعيينات لا يوجد إلا بالنسبة للآخر"[16]، ومكمن الصراع هو رغبة كل طرف في إظهار سلطته على الطرف الآخر، فهدف الصراع هو اقتناص لذة الاعتراف بوجودي على حساب غيابك، فالآخر مرآة نرى فيها حقيقتنا بلا وهم ولا زيف، أضف إلى ذلك أن هذا الآخر موجود شئنا أم أبينا ذلك، ووجوده لا يقتصر على عالم الإدراك والإحساس فحسب، بل هو ممتد وغير مرهون بما ندركه وما نحس به،" إن ريش الطيور المتعدد الألوان يرف حتى ولو لم يسمعه أحد، وشجرة كاراثوس التي لا تزهر إلا في ليلة واحدة يفنى ما عليها ويسقط من دون أن يسمع به أحد"[17]

إنه رد على المعتقدين أن الوجود هو الإدراك وعلى رأسهم أنصار المذهب الذاتي، إذ ينفي "هيغل" أن يكون الوعي ذاتيا محضا، كون هذا الأخير مجرد مرحلة ابتدائية تسبق مرحلة الاعتراف بالذات من قبل الغير، فالأنا موجود بالآخر ومن أجله، والآخر في غياب الأنا وانتفائها، فنحن –حسب "هيغل"– " بإزاء تعيينات ينفي بعضها بعضا وتظل سواء بعضها بالنسبة لبعض في نفس الوقت الذي ينفي فيه بعضها بعضا "[18]

إن هذا الصراع الهيغلي بقدر ما هو في استقلال الذات وابتعادها عن الآخر، هو أيضا تماه واتحاد مع هذا الآخر، ذلك لأن الذات تدرك نفسها عندما تنعكس على الآخر، لذلك " لا تسمح الصيرورة الهيغلية لأطراف هذه الازدواجية أن تتباعد. الوعي الذاتي بالنسبة "لهيغل" هو عودة الوعي من الآخرية لإدراك ذاته "[19] فهذه الازدواجية تحمل – إذن – اعترافا بالآخر وهو ما يحيل إلى هوية جماعية ذات تقاطعات بين ذاتية ووفق تقابل في الأدوار بين وعيين مختلفين ينفي أحدهما الآخر ويثبته في آن واحد.

بدوره لم يتوان الفيلسوف الفرنسي "بول ريكور" paul Ricoeur في دحض مركزية الذات المتعالية، من خلال إعادة توجيه بوصلة الوعي بالذات وإخراجه من تضاعيف الذات المنغلقة إلى التخوم البين ذاتية، فقد انطلق "ريكور" في مغامرته لتأويل الذات من البعدين الانطولوجي والابستيمولوجي لعلاقة الذات بالآخر أو الغير، معتمدا على الفلسفة التحليلية الانجلوسكسونية والفلسفة العقلية القارية، فالأولى . كما نعلم . تعنى بالجوانب اللغوية الكلامية (أفعال الكلام)، والثانية تعنى بالفلسفة العقلية، وقد تبنى هذا المنهج في كتابه : الذات عينها كآخر، من أجل الوصول إلى تأويلية متكاملة للذات، يقول في مستهل هذا الكتاب:" منذ الدروس الأولى سيجد القارئ محاولة لإدخال أجزاء مهمة من الفلسفة التحليلية الانجليزية للغة، إلى تأويلية الذات الوريثة...إن اللجوء إلى التحليل هو الثمن الذي يجب دفعه من أجل تأويلية تتميز بوضع غير مباشر للتأكيد على الذات"[20]

يبدو منذ الوهلة الأولى أن "ريكور" قد خاض رحلة بحث عن الذات في الآخر وبالآخر، قصد إيجاد تأويلية غير اعتباطية للذات تكون نتيجة تثاقف تاريخي بين ثقافتين غربيتين غريبتين في الظاهر، كما ينفى "ريكور" أنه قد قام بعملية زواج قصري بين الذات والآخر . كما فعل "هيغل" . ولا استعادة لطموح جنوني للأنا كما عند "ديكارت".

يبدأ مشروع "بول ريكور" لإيجاد تأويلية للذات من خلال تقسيمه إياها تقسيما ثنائيا: فهناك هوية عينية ثابتة في الزمن وغير قابلة للتغير، وهناك هوية ذاتية متغيرة لا تحمل أية نواة صلبة، ومن هذا التقسيم نصل إلى نتيجة مفادها أننا " حين نبقى ضمن دائرة الهوية العينية فإن غيرية الآخر المختلف عن الذات لا تمثل أي شيء أصيل... في حين أن الأمر يختلف لو نحن جمعنا بين كلمة الغيرية مع الذاتية، إنها آخر يمكن أن تكون مكونة للذاتية نفسها "[21]

"فريكور" . إذن . يراهن على هوية ذاتية قد نحتت بمؤثرات غيرية، تعمل هذه الذاتية على زعزعة التعالي وجرح "الكوجيتو الديكارتي" . من جهة . وتحويل علاقة التضايف الهيغلية حلولا تزول فيها الحدود . من جهة أخرى . فهذا الموقف لبول ريكور لم يتشكل اعتباطا ولا من فراغ، بل كانت منطلقاته نيتشوية/فرويدية، وجذوره تمتد إلى فلاسفة الريبة والتّظنّن، على اعتبار أنهم أول من كشف وفضح الوعي الديكارتي، فوصفوه بالزيف والخداع والأحادية الروحية مقابل التغاضي والتعالي على نزوات الجسد،" يعتبر "نيتشه" أن مثل هذه الفلسفات التي اختزلت الأنا في التفكير والفضيلة

المتعالية عن نزوات الجسد، وقعت في المحظور الأقصى ألا وهو العدمية"[22]، لأن الوعي في هذه الحالة سينشأ داخل غشاء وهمي كما يصفه "نيتشه" Nietwche، إنه دثار الروح الزاهدة الواهية والمتوهمة لوعي سرابي وضبابي مزيف.

اتّخذ "بول ريكور" موقفا إيجابيا من آراء "سيغموند فرويد" Sigmund Freud و الذي بدوره حذا حذو "نيتشه" حين أقر أن الأنا ليس بسيد على نفسه، وليس قادرا على إدراك ماهيته بمفرده، بل عليه العودة إلى الترسبات الطفولية وعقده النفسية خارج وعيه وبهذا" برهن بأن الأنا ليست سيدة نفسها حتى حين تخدع نفسها وتعتقد ذلك، فالذات بنية طفولية قديمة، وهي ضحية عصاب دائم بسبب رقابة الأنا الأعلى عليها"[23]، إنما داخل المضمر النفسي أو اللاوعي الفردي، الذي تتزاحم فيه التقابلات والعقد ويسكنه الآخر.

من خلال ما سبق يتضح أن "بول ريكور" قد بنى موقفه على الصراع بين العقلانيين وفلاسفة الريبة، ما أفضى بالفيلسوف الفرنسي إلى تبني نظرة توفيقية تأويلية للعلاقة التفاعلية بين الذات بوصفها مجموعة اناوات، والآخر أو الغير" فالآخر هنا ليس مجرد المقابل لعينه، بل إنه ينتمي إلى التكوين الحميمي لمعناه، وفي الواقع فعلى الصعيد الفينومينولوجي، هناك طرق عديدة متعددة يؤثر فيها الآخر غير الذات في فهم الذات لذاتها ورسم بالضبط الاختلاف بين الأنا التي تقيم وتتثبت، والذات التي لا تعرف نفسها إلا من خلال هذه التأثيرات نفسها"[24]

فالأنية عند بول ريكور هي النواة الصلبة التي لا تقبل التآكل والتغير جراء التأثير الخارجي، عكس الذات التي تصغي لكي يتكلم غيرها، وتتكلم لأن غيرها مصغ، فالنتيجة المنطقية التي توصل إليها ريكور هي" أن هذا التشابك يعبر عنه على الصعيد الصرفي النحوي بطابع كل الصيغ(صيغة المتكلم والمخاطب والغائب) التي تأخذها الذات التي تنتقل بين كل الضمائر، الذات تعني أنا أو أنت أو هو الخ..."[25]

يدعم "بول ريكور" موقفه من العلاقة التبادلية بين الذات والآخر بالنسق التخاطبي في القصص الخيالية التي تكتب بضمير الغائب(الآخر)، وكذا في المؤسسة الأخلاقية التي تروم العيش الجيد مع الآخر،" كما لو كانت الصداقة للذات عينها تأثيرا ذاتيا مترابطا ترابطا وثيقا مع التأثر بالغير الصديق ومن أجله"[26]، إن هذا الترابط يفضي بالذات إلى صداقة الآخر، الذي هو – حسب ريكور– صورة أخرى عن صداقة الذات، وإننا معا نتحمل بالتناوب مسؤولية بناء مؤسسة

أخلاقية عادلة، ونتيجة لذلك فإن الذات تنفتح على سياق اجتماعي محاولة التموضع في تخوم أبعد من الإنية الضيقة، "وهكذا نرى أن الضمائر وأسماء الإشارة تقوم في خدمة هذا الوضع وذلك التأشير، وأما اللسان ليس هو أكثر أساسا مما هو موضوع، إنه وسيط وإنه الوسط الذي فيه ومن خلاله تضع الذات ذاتها ويظهر العالم نفسه "[27]

إنه تأويل جديد للذات منبثق عن وجهة نظر نيتشوية تفكيكية وتحليل فرويدي عمّق الجروح الديكارتية، يقر فيه "بول ريكور" باستحالة وجود ذات منغلقة على نفسها، فالموقف التخاطبي البسيط يؤكد كينونة الأنا في مقابل الأنت وغياب هذا الأخير يعني انتفاء الأنا، ولا تتوقف العلاقة بين الذات والآخر هنا، بل تنفتح على المكانة الانطولوجية للذات داخل المجتمع وما يفرضه هذا الأخير من قوانين مؤسساتية وأخلاقية تدفع الذات للتساؤل عن كيفية التخلق داخل هذا النظام، ومن ثم انتزاع الاعتراف بالوجود في خضم علاقات اجتماعية تبادلية مع الآخر، ومن هنا يكتسب مشروع "بول ريكور" مشروعيته من خلال الدعوة إلى الانفتاح على الآخر لأنه هو من يمنحني الاعتراف بوجودي من خلال اعترافي به، وهذه رؤية مختلفة عن الرؤية الهيغلية القائمة على الوعي الذاتي الأحادي السيادي.

خلص البحث في الختام إلى جملة من النقاط هي:

إن التأويل القديم للذات على أنها مسكونة بالحقيقة وقادرة على فهم كنه العالم لوحدها هو تأويل قاصر مصيره المحدودية، فكما أن الذات المنغلقة يمكنها الوصول إلى حقيقة ما حول نفسها أو حول العالم، فلا غرو أن توسم هذه المعرفة الضعف والفشل لأنها لأن الذات في هذه الحالة اكتفت بنفسها مشكّلة أسوار متكلسة في علاقتها مع الآخر الذي يملك نصف الحقيقة، وبالتالي فإن عدم التذاوت والتفاعل مع الذوات الأخرى يفضي إلى إنتاج الوهم بدل اليقين والزيف بدل الحقيقة.

يكشف "روني ديكارت" عن موقفه إزاء معرفة الذات من خلال "الكوجيتو" المتعالي على الغير، إذ يرى أن التي تفكّر هي ذات لاهوتية عارفة، أنها ذات تستند للعقل المحض للوصول الى المعرفة من خلال الشك في كل ما يقبل الشك، ورغم أن آراء "ديكارت" كانت ثورة فلسفية أعادت الاعتبار للعقل، إلا أنه لم يسلم من النقد خاصة من قبل أنصار المذهب التجريبي الذين سعوا لدحض فكرة أولية العقل وأحاديته في الوصول لأية معرفة، ليأتي الدور على ثالوث الريبة (ماركس، فرويد، نيتشه) لتعميق جروح الكوجيتو الديكارتي من خلال اتهام العقل بالزيف والخداع، فالوعي الإنساني الفردي

هو وعي كاذب، لأن النرجسية والتعالي على الآخر توقع العقل في دوغمائية تنتج الوهم والخرافة، فلا حقيقة في الوجود إنما هي مجرد تأويلات –حسب نيتشه– للعالم وللذات، ووفقا لذلك فإن نظام العقل بات قابلا للهدم من أجل استرجاع حرية الإنسان وماهيته الحقة من قبضة السلطة.

أفاد الفيلسوف الفرنسي "بول ريكور" من أبحاث فلاسفة الريبة وتأويلات "هيدغر" ليؤسس لنظرية هووية جديدة مبنية على ثنائية الهوية العينية الثابتة والهوية الذاتية المتغيرة، ويرى أن في الهوية الذاتية يسكن الآخر وينحت وجوده ويثبت تواجده، أنها إرادة الوجود –كما يسميها "نيتشه"– وسلطة الضمير الأخلاقي والمؤسساتي القابع في اللاوعي الداخلي للذات.

هوامش:

[1]. حسن شحاتة: الذات والآخر في الشرق والغرب، صور ودلالات وإشكاليات، دار العالم العربي . القاهرة، (مصر)، ط1، 2008،ص 25.

[2]. علي محمد علي الطنازفتي، الهوية في الفكر السياسي الإسلامي المعاصر بين سيد قطب وعلي شريعتي،مكتبة مديولي، القاهرة(مصر)ط1، 2013،ص57.

[3]. ميشيل فوكو: تأويل الذات، تر: الزواوي بغوره، دار الطليعة، بيروت، (لبنان)، ط1، 2011، ص16.

[4]. ميشيل فوكو: الانهمام بالذات، جمالية الوجود وجرأة قول الحقيقة، تر: محمد ازويتة، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء،(المغرب)،ص11.

[5]. تشارلز تايلر: منابع الذات، تكون الهوية الحديثة، تر:حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، (لبنان)،ط1، 2014، ص199.

[6]. المرجع نفسه، ص 200.

[7]. ميشيل فوكو: الانهمام بالذات ، ص 36.

[8]. ميشيل فوكو: تأويل الذات، ص 256.

[9]. ميشيل فوكو: الانهمام بالذات، ص 21.

[10]. مصطفى بن تمسك: الذات المتعددة لدى بول ريكور، مجلة الباب، العدد06، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الرباط، (المغرب)، صيف 2015، ص05.

[11]. بول ريكور: الذات عينها كآخر، تر: جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت (لبنان)، ط1، 2005، ص79.

[12]. حسن مجيد العبيدي: من الذات إلى الآخر(دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة والفكر العربي الفلسفي المعاصر)، دار الطليعة، بيروت، (لبنان)، ط1، 2008، ص34.

[13]. المصدر نفسه، ص 41.

[14]. المصدر نفسه، ص 42.

[15]. مارتن هايدغر: الفلسفة، الهوية والذات، تر: محمد مزيان، منشورات ضفاف، بيروت، (لبنان)،ط1، 2005،ص34

[16]. عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، (لبنان)،ط1، 1984،ص584.

[17]. حسن مجيد العبيدي: من الآخر إلى الذات، ص 42.

[18]. عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، ص 584.

[19]. جوديث بتلر: الذات تصف نفسها: تر: فلاح رحيم، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (لبنان)، ط1، 2014، ص 18.

[20]. بول ريكور: الذات عينها كآخر: ص 93. 94.

[21]. المصدر نفسه، ص 72.

[22]. مصطفى بن تمسك: الذات المتعددة لدى بول ريكور، ص07- 08.

[23]. بول ريكور: الذات عينها كآخر، ص 607.

[24]. المصدر نفسه، ص 606-607.

[25]. المصدر نفسه، ص 607.

[26]. المصدر نفسه، ص 609.

[27]. بول ريكور: صراع التأويلات: دراسات هيرمينوطيقية، تر: منذر عياشي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، (لبنان)،ط1، 2005، ص 303.